ذاكرة العرب

دورية علمية مُحكّمة – العدد الرابع – ٢٠٢٠

ISSN 2735-4210

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الذاكرة العربية

دورية علمية مُحكّمة

OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT

مركز دراسات الحضارة الإسلامية
Center for Islamic Civilization Studies

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

ذاكرة العرب. - ع4 (2020) - . - الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، قطاع البحث الأكاديمي، مشروع ذاكرة العرب، 2020.

مجلدات ؛ سم.

ردمد 2735-4210

1. العرب-- تاريخ-- دوريات. 2. الثقافة العربية-- دوريات. 3. الحضارة العربية -- تاريخ -- دوريات. 4. الدول العربية-- تاريخ-- العصر الإسلامي-- دوريات. 5. الدول العربية -- تاريخ-- دوريات. أ- مكتبة الإسكندرية. قطاع البحث الأكاديمي. مشروع ذاكرة العرب.

ديوي – 909.04927 2020424354276

ISSN 2735-4210

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢٠.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الدورية، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الدورية، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

طُبِع بمصر
١٠٠٠ نسخة

الإشراف العام

أ . د . مُصْطَفى الفِقي

مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس قطاع البحث الأكاديمي

د . مَرْوَة الوَكِيل

رئيس التحرير

د . مُحَمَّد الجَمَل

هيئة التحرير

د . رَضْوَى زَكِي

د . شِيرِين القَبَّاني

المراجعة اللغوية

رَانيا يُونس

فَاطمة نَبِيه

فَرِيدَة صُبِيح

مُحَمَّد حَسَن

مراجعة التنسيق

مَرْوَة عَادِل

معالجة النصوص

سَمَاح الحَدَّاد

التصميم الجرافيكي

مَهَا رِفْعَت

الإسكندرية، ٢٠٢٠

مجلة ذاكرة العرب دورية علمية مُحكّمة تهتم بالتراث الثقافي والتاريخي والحضاري للبلدان العربية والإسلامية، وتهدف إلى التأكيد على أهمية استعادة الذاكرة العربية للحاضر العربي الراهن، وتصدر عن مشروع «ذاكرة العرب» بقطاع البحث الأكاديمي بمكتبة الإسكندرية.

الهيئة الاستشارية

أ. د. أشرف فراج (مصر)

أ. د. ألبرشت فوس (ألمانيا)

أ. د. أيمن فؤاد سيد (مصر)

أ. د. حسام الدين شاشية (تونس)

أ. د. حسن محمد النابودة (الإمارات)

أ. د. حسين العمري (اليمن)

أ. د. خالد زيادة (لبنان)

أ. د. خوسيه ميجل بوريتا (إسبانيا)

أ. د. ديفيد نيكول (إنجلترا)

أ. د. سليمان الذييب (السعودية)

أ. د. صلاح جرار (الأردن)

أ. د. عبد الرحمن السالمي (عمان)

أ. د. عبد القادر بوباية (الجزائر)

أ. د. عبد الواحد ذنون طه (العراق)

أ. د. محمد أبطوي (المغرب)

أ. د. محمد الأمين ولد آن (موريتانيا)

أ. د. مصطفى موالدي (سوريا)

أ. د. نيقولا ميشيل (فرنسا)

قواعد النشر

- ترحب المجلة بنشر البحوث الجديدة في كافة مجالات دراسات التراث الثقافي والتاريخي والحضاري للبلدان العربية والإسلامية.
- يجب أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار والمنهجية، وأن يكون البحث جديدًا ولم يُنشر من قبل بأي صورة من صور النشر، وغير مستلٍّ من كتاب أو رسالة جامعية (ماجستير، دكتوراه).
- يتراوح عدد كلمات البحث بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠ كلمة.
- يُستخدَم خط Traditional Arabic للبحوث باللغة العربية بحجم ١٦ للمتن، و١٤ للهوامش، ومسافة واحدة بين السطور.
- يُستخدَم خط Times New Roman للبحوث باللغة الإنجليزية بحجم ١٤ للمتن، و١٢ للهوامش، ومسافة واحدة بين السطور.
- توضع الهوامش والإحالات في نهاية البحث إلكترونيًّا، ويكون تسلسل أرقام الهوامش متتاليًا متسلسلًا في البحث.
- يرفق قائمة بالمصادر والمراجع في نهاية البحث.
- يراعى اتباع منهجية النشر وقواعد كتابة المصادر والمراجع المتبعة في مكتبة الإسكندرية، ويلتزم الباحث بإجراء أي تعديلات ببليوغرافية حال طلبها.
- يرسل الباحث السيرة الذاتية مختصرة، ومزودة ببطاقة الهوية وبيانات اتصال كاملة.
- تحكيم الأبحاث سري ومعد على نموذج يخضع للمعايير العلمية الأكاديمية، وقرار إجازة البحث للنشر أو رفضه هو قرار نهائي. في حال الإجازة مع التعديل، يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة وفق المدة المحددة.

التواصل وإرسال الأبحاث عبر البريد الإلكتروني للمجلة:

arabmemory.journal@bibalex.org

الفهرس

تقديم ٧

الفُرُوسِيَّةُ والفُنُونُ الحَـرْبيَّة في عَصْــرِ سَلاطِين المَماليك ٩
أ. د. أيْمَن فُؤَاد سَيِّد

التروس الأوروبية الأصل في ضوء المصادر العربية والفنون الإسلامية في مصر والشام ١٥
أ. د. عبد الناصر ياسين

أثر النظم الدينية والحربية في فنون الفروسية المملوكية ٣٩
أ. د. عبد العزيز صلاح سالم

العناية البيطرية بخيل الفرسان خلال العصر المملوكي: دراسة تاريخية حضارية ٦٣
د. شيرين القباني

علم الرمي بالقوس والسهم في ضوء المخطوطات الحربية المملوكية ٨١
د. محمد إبراهيم عبد العال

وزن القوس (الطرق التقنية لمعرفة قوة القوس) في ضوء نقش كتابي مملوكي جديد (٧٠٦ هـ/ ١٣٠٦ م) ١٠٧
د. فرج الحسيني

تطور تقنيات الآلات الحربية وأدوات القتال وأثرها على نظام الفروسية في العصر المملوكي الجركسي ١٢٧
د. المصطفى الخراط

تقديم

في إطار اهتمام مكتبة الإسكندرية بأن تكون مركزًا للتميز في إنتاج المعرفة ونشرها، ومكانًا للتفاعل بين الشعوب والحضارات؛ واستكمالًا لرسالتها في صناعة ونشر المعرفة، لتتبوأ بدورها مكانة بارزة في مجال البحث والنشر العلمي، من خلال نشر الكتب والدوريات والموسوعات في مختلف أوجه الثقافة والمعرفة؛ استطاعت مكتبة الإسكندرية أن تؤدي دورها بوصفها مؤسسة دولية رائدة في تطوير مجالَيْ النشر الورقي والرقمي، وإحداث حالة من الحراك الثقافي والأكاديمي على حدٍّ سواء.

وفي هذا السياق، تُصدر المكتبة العدد الرابع من مجلة «ذاكرة العرب» التابعة لمشروع «ذاكرة العرب» بقطاع البحث الأكاديمي بالمكتبة. وهي دورية علمية مُحكّمة تهتم بالتراث الثقافي والحضاري للبلدان العربية. وقد صدر العدد الأول من المجلة في نهاية عام ٢٠١٨ م، بهدف التأكيد على أهمية استعادة الذاكرة العربية للحاضر العربي الراهن. وخُصص هذا العدد لموضوع الفروسية والفنون الحربية في عصر سلاطين المماليك، ليعبِّر عن جانب من الأحداث والفعاليات الثقافية التي تنظمها مكتبة الإسكندرية، وتتيحها للباحثين والمهتمين من خلال دراسات ودوريات علمية مُحكّمة منشورة؛ حيث ضم هذا العدد بعض البحوث المقدَّمة ضمن أعمال مؤتمر دولي عُقِد في مكتبة الإسكندرية في الفترة من ٢٤ – ٢٥ يونية ٢٠١٩ م.

واختير موضوع الفروسية في عصر المماليك محورًا لهذا العدد، على أن يُستكمل في العدد القادم من المجلة ذاتها؛ ليلقي الضوء على بطولات عسكرية في مواجهة الاعتداءات على العالم العربي من الشرق والغرب، امتدت عبر رقعة واسعة من أرجاء العالم العربي. وتتمثل أهمية هذه الدراسات كذلك في أنها توضح المكانة البارزة للعلوم الحربية في تراث الحضارة الإسلامية. وتستعرض البحوث في العدد الرابع من المجلة اهتمام سلاطين المماليك بالقوة الحربية وفنون الفروسية، وعنايتهم بتعليم مماليكهم وتدريبهم على كافة فنون الفروسية، واستخدام الأسلحة المتنوعة وطرق المبارزة.

وتتنوع موضوعات البحوث في هذا العدد لتشمل دراسات متنوعة باللغتين العربية والإنجليزية عن الفروسية، والخطط الحربية، وفنون القتال، والفروسية في العصر المملوكي؛ بالإضافة إلى دراسات عن عناية السلاطين باختيار أجود أنواع الخيل التي تتميز بجودة سلالتها وقوتها، وفنون التدريب والرمي، وذلك من خلال المصادر والمخطوطات التي تهتم بتطور فنون الحرب، وقيادة الجيوش، وتدريب الجند، وتنظيم المعارك وإدارتها، واستخدام الأسلحة وأدوات القتال المتنوعة من السيوف والرماح والسهام والآلات الحربية، وميادين السباق والتدريب في قاهرة المماليك، وتطور الاستراتيجيات والخطط الحربية في العصر المملوكي.

أ. د. مصطفى الفقي

مدير مكتبة الإسكندرية

تطور تقنيات الآلات الحربية وأدوات القتال وأثرها على نظام الفروسية في العصر المملوكي الجركسي

د. المصطفى الخراط

تطور تقنيات الآلات الحربية وأدوات القتال وأثرها على نظام الفروسية في العصر المملوكي الجركسي

د. المصطفى الخراط*

مقدمة

لا شك أن الحديث عن التطور التقني الحربي في العصر المملوكي ليس بالأمر السهل أو الهين، بل إنه من الصعوبة بمكان مما جعل العديد من الباحثين يتجنبون الخوض فيه، أو محاولة التطرق إلى الحديث عنه، وربما يرجع ذلك لعدة أسباب؛ منها: إن فترة العصر المملوكي الجركسي شهدت تحولاً تدريجيًّا في تقنيات الأسلحة في ذلك الوقت، وهذا التحول كان له تأثير قوي على أنظمة الجيش في ذلك الوقت، بما في ذلك أنظمة الفروسية، وما يتعلق بها من طرق التدريب، وما شابهها؛ حيث شهد العصر المملوكي الجركسي ظهور تشكيلات عسكرية جديدة لتتناسب وتطور تقنيات هذه الأسلحة بالإضافة إلى تقليل بعض التشكيلات الأخرى التي بدا تدريجيًّا لا مناص من تقليلها، هذا بالإضافة إلى عدم اقتناع بعض الباحثين بهذا التحول التدريجي التقني في استخدام الأسلحة المملوكية، وقد تبنى هذا الفريق رأيًا مفاده أن العصر المملوكي لم تظهر عليه أيٌّ من مظاهر التطور الحربي التقني، ومن ثم ظل على شاكلته التقليدية حتى نهاية عصره بنظام الفروسية التقليدية، مستندين بذلك إلى أن من أهم أسباب نهاية هذا العصر هو عدم التطور التقني والتشبث بالأنظمة الحربية التقليدية دون تطور؛ استنادًا إلى قول بعض المؤرخين، وهو ما سنعرضه تفصيلاً لاحقًا.

إن الحديث في هذا الأمر له شقان؛ الشق الأول: عن تطور الآلات الحربية وأدوات القتال في العصر المملوكي الجركسي، والشق الثاني: يطرح تساؤلاً هامًّا: هل هذا التطور أثَّر على نظام الفروسية المملوكية أو لا؟ والإجابة عن هذا التساؤل متعلقة بالبحث في الشق الأول، وهو مقياس مدى تطور التقنيات الحربية المملوكية في العصر الجركسي.

ومن خلال ما سبق يمكن لنا تحديد منهجية البحث في عدة أطر مختلفة:

- تطور التقنيات الحربية وأدوات القتال من خلال التراث العلمي المملوكي.
- مدى استيعاب الجيش المملوكي لهذه التقنيات.
- تأثير تطور هذه التقنيات على تشكيلات الجيش المملوكي الجركسي.
- مدى تأثير هذه التقنيات على نظام الفروسية خلال العصر المملوكي الجركسي.

الإطار الأول

تطور التقنيات الحربية وأدوات القتال من خلال التراث العلمي المملوكي

تعد فترة العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) من المراحل المهمة في تقدم التقنيات الحربية الإسلامية، تلك التقنيات التي وضعت أسسًا هامة سار على نهجها مَن اهتم بعده بمجال الأسلحة النارية، ولا نستطيع بأي حال من الأحوال إغفال الدور العلمي المملوكي في تقدم الصناعات الحربية؛ حيث ظهرت منها أنواع تمثل مدى التقدم التقني عندهم، وهو ما يؤكده ما وصل إلينا من مخطوطات مملوكية تمثل تراثًا علميًّا يستحق منا المزيد من الاهتمام.

حدد العلماء مجموعة من مخطوطات التراث العلمي الحربي الإسلامي مثلت نقلة نوعية في التطور التقني في هذا المجال، ومن خلال تتبع هذا التطور يمكننا الوقوف على مدى ما وصل إليه العصر المملوكي الجركسي من تطور ومدى تأثيره على أنظمة الفروسية المملوكية خلال تلك الفترة.

هذه المخطوطات تمثل مراحل هامة يجب وضعها في الاعتبار عند دراسة تاريخ التقنيات الحربية كما مثلت نقلة نوعية في تطور التقنيات الحربية وساعدت كثيرًا في عملية التأريخ التقني الحربي في ذلك الوقت. وقد حوت هذه المخطوطات العديد والعديد من التقنيات الحربية المتطورة التي تدل على مدى التقدم التقني الذي وصل إليه العصر المملوكي في مجال الآلات الحربية وأدوات القتال. كما أثبتت هذه المخطوطات بما لا يدع مجالًا للشك أن العصر المملوكي كان يتمتع بتقدم مزدهر في هذا المجال في إطار ما توافر لنا من مخطوطات علمية وأدبية تدل على ذلك.

وعلى الرغم من كثرة مؤلفات التراث العلمي الحربي خلال تلك الفترة منذ القرن ٦ هـ/ ١٢ م إلى القرون الأخيرة، فإن البحث الذي تم حتى الآن لم يكن على المستوى المطلوب الذي يتيح لنا فهمًا دقيقًا لتطور التقنيات الحربية المملوكية في إطار ما وصل إلينا من تراث علمي، وذلك على الرغم من أنه في حالات متفرقة من هذا الاتجاه من الأدب العربي أمكن له أن يبين أن تلك الجهود لم تقتصر على وضع المؤلفات الواسعة التي تصف أنواع الآلات الحربية المستخدمة فحسب، بل نجد بالإضافة إلى ذلك تطورًا جذريًّا للتقنية الحربية أيضًا.

حقيقة الأمر كما ذكرنا أن العلماء اعتمدوا في رصد تطور تقنيات الآلات الحربية خلال تلك الفترة على خمسة مصادر تاريخية تقنية في ذات الوقت، جميعها مزود برسومات كانت لها أهمية بالغة في تتبع هذا التطور التقني، وكان بطبيعة الحال من الأهمية بمكان في تدوين تاريخ التقنية الحربية بصفة عامة، ويمكن من خلاله تتبع التطور التقني الحربي خلال تلك الفترة.

الكتاب الأول: «تبصرة الألباب في كيفية النجاة من الحروب» وهو لرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي الذي ألفه للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩ - ٥٨٩ هـ/ ١١٧٤ - ١١٩٣ م)، **والكتاب الثاني**: الفروسية والمناصيب الحربية للعالم المسلم نجم الدين حسن الرماح (ت ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م)، **والثالث**: لمؤلف مجهول، وهو كتاب المخزون في جامع الفنون من القرن ٨ هـ/ ١٤ م، **والكتاب الرابع**: للعالم أرتبغا الزردكاش الموسوم بكتاب الأسلحة، والمسمى خطأ بالأنيق في المجانيق، وقد كتب (٧٧٤ - ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م) زمن السلطان ناصر الدين شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ/ ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م)، وليس كما ذكر الدكتور نبيل عبد العزيز من أن اسمه الأنيق في المجانيق، وتم تأليفه ٨٦٧ هـ على أيام السلطان سيف الدين خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ/ ١٤٦١ - ١٤٦٧ م) فالمخطوط أُلِّف أواخر عصر المماليك البحرية[1].

إن الدراسات التي تمت إلى الآن عن تطور تقنيات الآلات الحربية خلال العصرين الأيوبي والمملوكي تعطينا انطباعًا بأن تقنية الآلات الحربية في البيئة الثقافية العربية الإسلامية قد حُقِّقت خصوصًا في القرنين (٦ - ٧ هـ/ ١٢ - ١٣ م) نتيجة لعمليات الدفاع ضد الصليبين، وكان هذا التطور تطورًا جذريًّا وسريعًا تقتضيه الحاجة، وهو أمر لا جدال فيه.

والكتاب الخامس: وهو مخطوط عن فنون القتال بالمدفعية وموسوم «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» لإبراهيم ابن زكريا الأندلسي (١٠٤٢ هـ/ ١٦٣٢ م)، وهو يمثل ذروة التطور التقني الحربي، والانتقال من مرحلة التجريب إلى مرحلة الاستقرار التقني في هذا المجال خلال أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وأوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

يبدأ هذا التطور أولًا في استعمالهم أقواس ميكانيكية كانت تصنع في أشكال مختلفة عرفت براميات الأسهم أو الزراقات أو الباليستا Ballista، وهي عبارة عن سهم كبير أو مجموعة من الأسهم تطلق في وقت واحد، وتستخدم لهدم الجدران والحصون، وأحيانًا تكون محملة بمواد مشتعلة أو متفجرة، وكان يمكنها - بواسطة استخدام روافع في صورة عجلات - أن ترمي قاذفات كبيرة وثقيلة. وظهرت أنواع جديدة حققت زيادة السرعة الابتدائية، وطول المدى للمقذوفات زيادة جوهرية فعّالة. وهذا

التطور عرفته أوروبا من المسلمين[٢]. وأقــدم ما وصلنا مــن هذا السلاح مــا وصفه العالم المسلم مرضي الطرسوسي (مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي ت ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م) فــي كتابه «تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأعداء ونشر أعلام الإعلام في العدد والآلات المعنية على لقاء الأعداء» الذي ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ - ٥٨٨ هـ/ ١١٧١ - ١١٩٢ م)؛ حيث وصف أنواعًا مــن الزراقات أو قوس الزيار[٣]، ثم تطورت الزراقات بعد ذلك إلى ما عرف بالقوس الإنجليزي الطويل، وكان ارتفاعه عن سطح الأرض ١٨٠ سم تقريبًا، وكان يتطلب لجذب القوس قوى عضلية تساوي ٢٤ كجم، وكان أقصى مــدى يصل إليه قوس السهم هــو ٣٥٠ مترًا تقريبًا، والمدى المؤثر له ٢٥٠ مترًا تقريبًا[٤] (شكل ١).

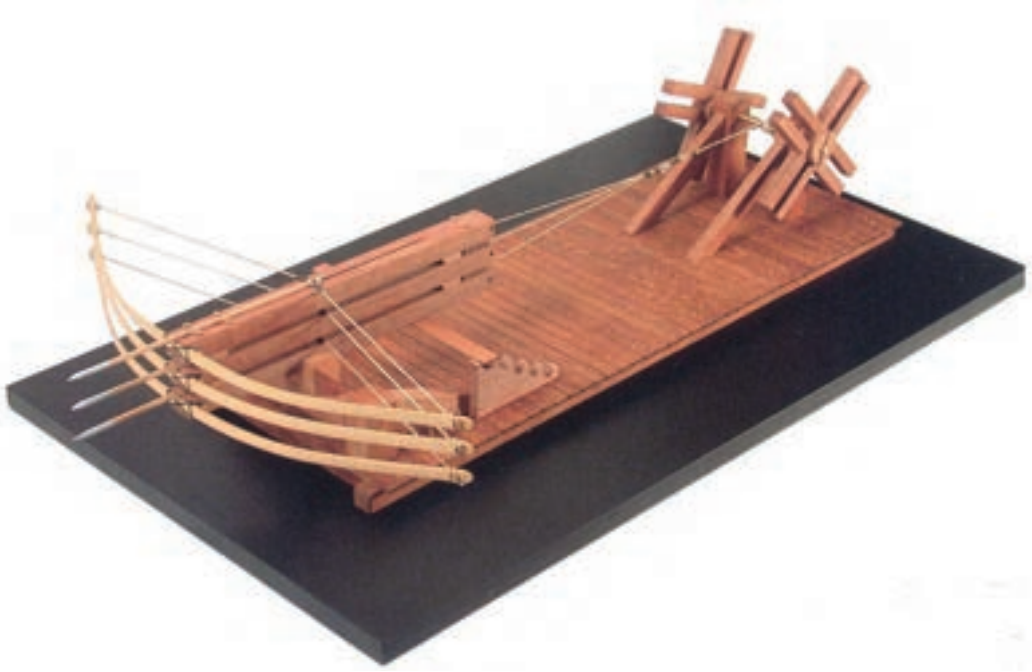

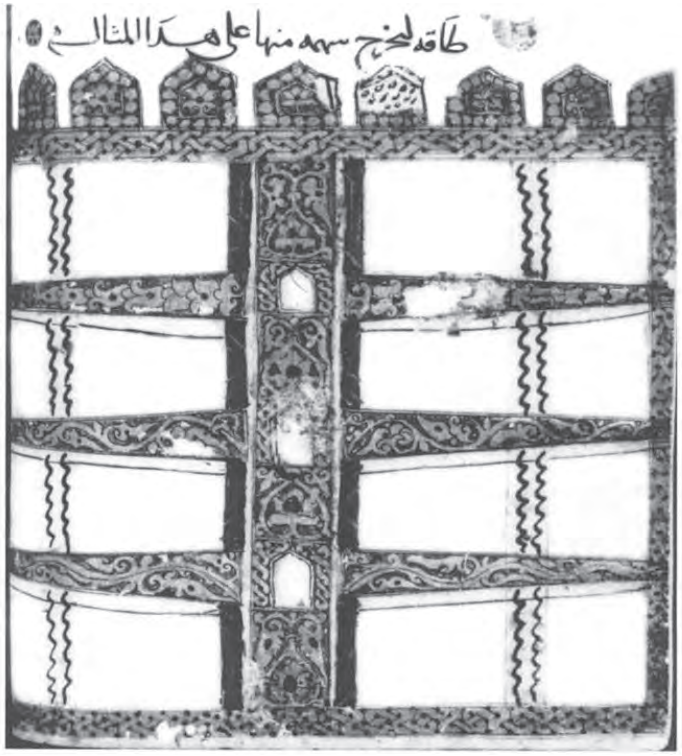

(شكل ١) الباليستا من مخطوط التبصرة لمرضي الطرسوسي، والشكل من أعلى مجسم للباليستا، محفوظ بمتحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

ويظهر هذا التطور ثانيًا في نشوء المنجنيقات باستعمال الروافع والبكرات، فاستخدام هذه الآلات القاذفة الجديدة التي ظهرت منذ بداية القرن (٧ هـ/ ١٣ م) في البيئة الثقافية العربية الإسلامية، وأخذها عنهم الصليبيون (وأكرر: وأخذها عنهم الصليبيون) كذلك حوالي نهاية القرن نفسه، تمكنوا، ليس فقط من توفير مهم في القوة البشرية، بل من زيادة السرعة الابتدائية للمقذوفات زيادة جوهرية، ووصلت هذه التقنيات ليس إلى أوروبا فقط، بل إلى بلاد الصين أيضًا[٥].

والمنجنيق آلة حربية ضخمة ثقيلة استخدمت في عمليات قذف ورمي الأحجار والسهام والقذائف المرسمة بالنفط والكرات النارية والصناديق النحاسية المتفجرة «صناديق المخاسفة» أي القابلة للاحتراق والتفجير، وكذلك قذف المواد المتعفنة والنتنة والقاذورات. ويعد المنجنيق من أهم الأسلحة الجماعية، وذلك قبل استخدام المدفع، وظل مستخدمًا مع المدفع جنبًا إلى جنب إلى منتصف القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وذلك بعد تعميم استخدام المدافع بديلاً عنه. وتقنية عمل المنجنيق عمومًا تعتمد على تكيف مجموعة من الأخشاب مع ألياف مجدولة قوية تعمل في منظومة واحدة بأسلوب السحب والشد لتطلق في النهاية مقذوفات أيًّا كان نوعها أو حجمها، وذلك يتوقف على نوع المنجنيق نفسه[٦] (أشكال ٢ – ٥).

(شكل ٢) نوع من أنواع المنجنيقات ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٥٧)، والشكل من أعلى نموذج مجسم للمنجنيق، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

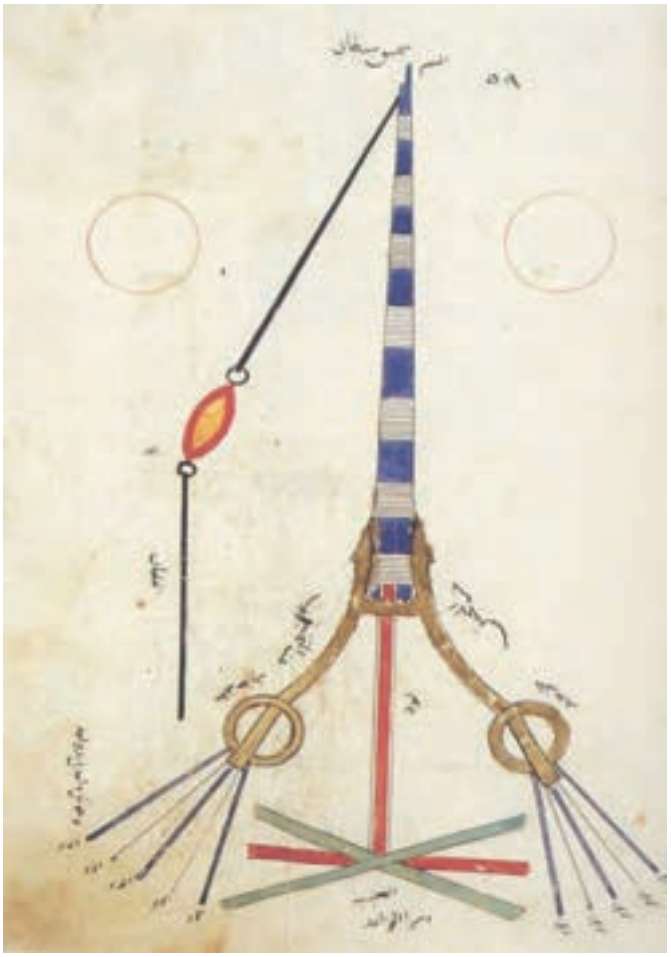

(شكل ٣) نوع من أنواع المنجنيقات ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٤٠)، والشكل من أعلى نموذج مجسم للمنجنيق، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

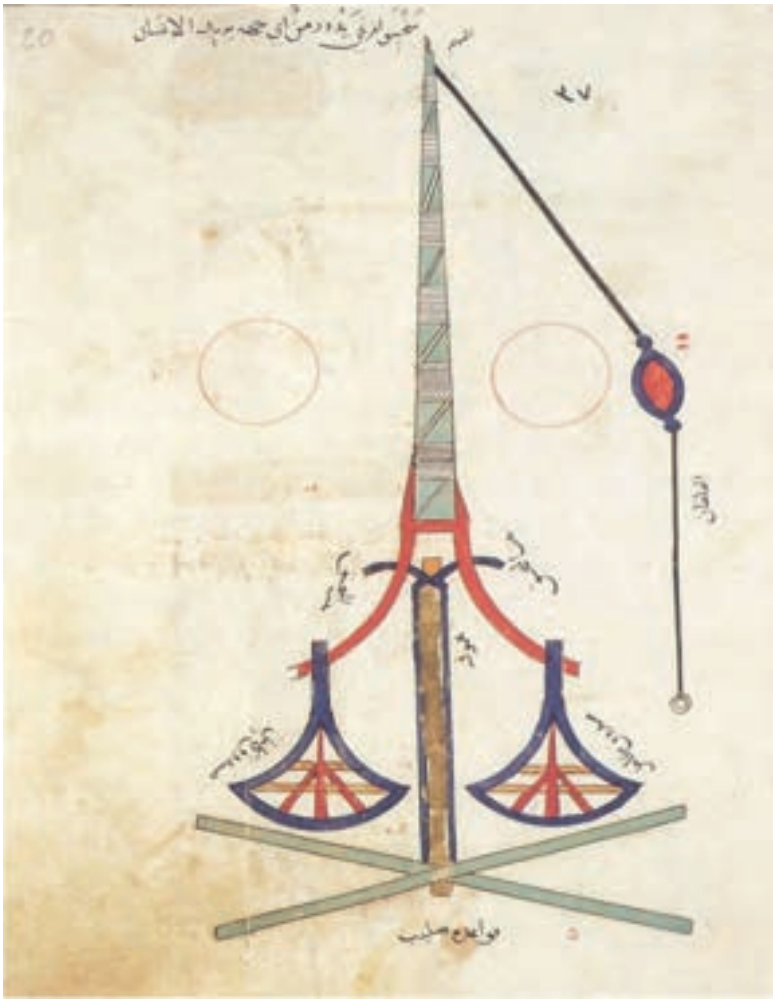

(شكل ٤) نوع من أنواع المنجنيقات ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٤١)، والشكل من أعلى نموذج مجسم للمنجنيق، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

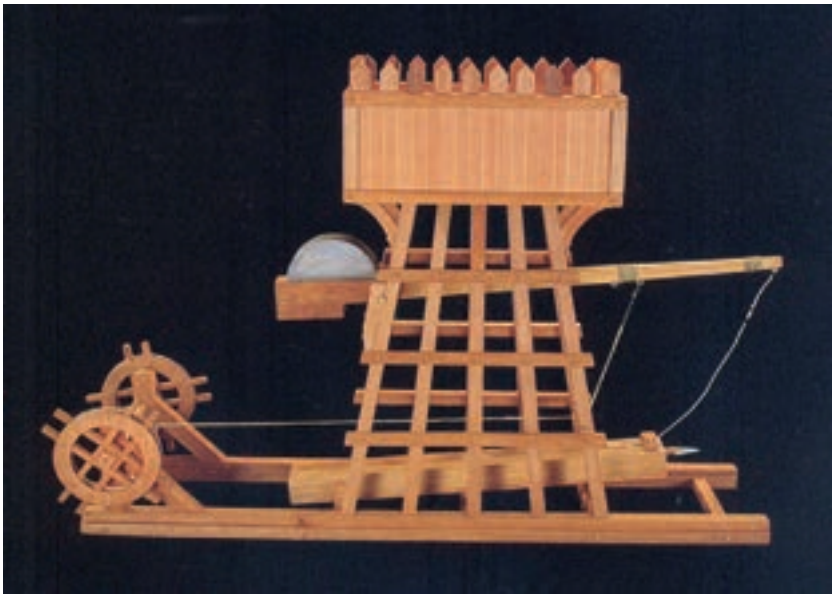

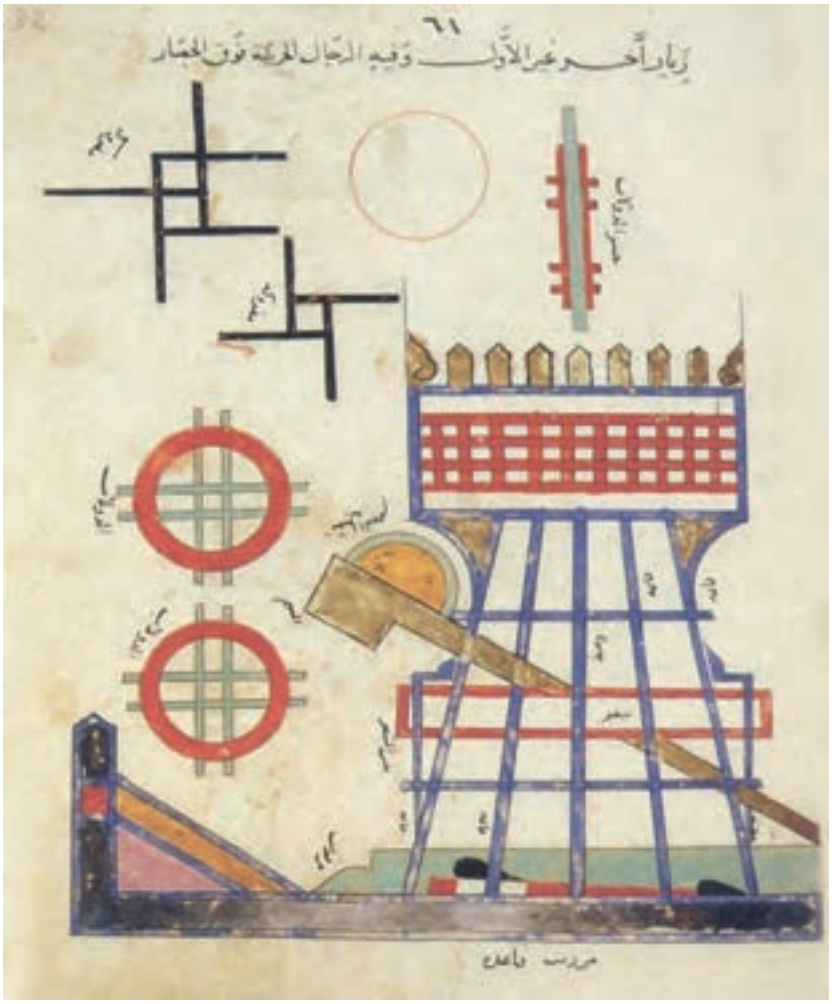

(شكل ٥) نوع من أنواع المنجنيقات ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٦١)، والشكل من أعلى نموذج مجسم للمنجنيق، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

أما التطور الثالث والأهم الذي تحقق في تقنية الآلات الحربية في البيئة الثقافية العربية الإسلامية فكان في استعمال البارود في المعارك، ونشوء الأسلحة النارية بغض النظر عمن مبتكر البارود؛ لأن هذه القضية حسمت لصالح علماء المسلمين[٧].

يبدو من الثابت أن أول استعمال للأسلحة النارية التي تعمل بمسحوق البارود قد تم في البيئة العربية الإسلامية، وما وصلنا من بيانات مقتضبة وغير مقتضبة في المصادر التاريخية حول استخدام الأسلحة النارية تؤكد لنا تأكيدًا لا لبس فيه أن العصر المملوكي أتقن استخدام هذه الأسلحة بمختلف أنواعها من أسلحة نارية يدوية ومواد حارقة وقنابل وقاذفات اللهب وطوربيدات وصواريخ (أشكال ٦، ٧، ٩)، ولا شك أن ما عرضه لنا مخطوط «المخزون» من طرق مبتكرة للأسلحة النارية المحمولة التي كانت مقدمة لاستخدام بنادق الأرقبوصات كان أمرًا يثير الدهشة؛ إذ إن المؤلف استخدم تقنيات الفتيل المشتعل في إشعال مقذوفه، وهي التقنية التي استخدمت فيما بعد في الأسلحة النارية المتطورة، مثل بنادق الأرقبوصات والمدافع البدائية التي اعتمدت على هذا النظام في إشعال مقذوفاتها (شكل ٨).

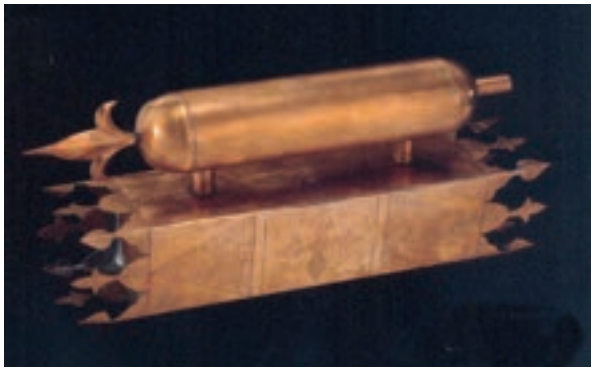

(شكل ٦) نوع من أنواع الآلات الحارقة ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٩٩)، تحت اسم «صندوق مخاسفة»، والشكل من أعلى نموذج مجسم للصندوق، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

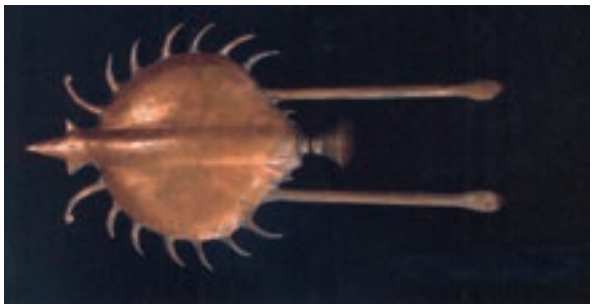

(شكل ٧) نوع من أنواع الطيار المجنون ذكرها نجم الدين حسن الرماح، والشكل من أعلى نموذج مجسم للمنجنيق، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

(شكل ٨) ابتكار علماء المسلمين لفكرة المدفع اليدوي والفتيل المشتعل، والشكل من مخطوط المخزون لجامع الفنون القرن (٧ هـ/ ١٣ م)، انظر: المصطفى محمد الخراط، معد، **المدفعية المصرية: الابتكار والتطور.. من العصر المملوكي إلى عصر محمد علي**، سلسلة ذاكرة مصر المعاصرة ١٧ (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٦): ٣١.

(شكل ٩) نوع من أنواع القدور الحارقة ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٩٠)، والشكل من الأيمن نموذج مجسم للقدر، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

أما عن أول ظهور لفكرة الفتيل المشتعل كانت على أيدي علماء العرب المسلمين؛ حيث جاء وصفها في مخطوط «المخزون في جامع الفنون» لمؤلف مجهول أواخر القرن (٧ هـ/ ١٣ م) أوائل القرن (٨ هـ/ ١٤ م)[٨]؛ حيث قدم المؤلف نصًّا يصف فيه كيفية استخدام مسحوق البارود كقوة دافعة داخل آلة جديدة وصفها نصًّا واصطلاحًا بـ«المدفع». وجاء فـي وصفه «تؤخذ عشرة دراهم (٣٠ جم) من ملح البارود ودرهمان من الفحم (٦ جم) ودرهم ونصف درهم (٥٠,٤ جم) من الكبريت، وتسحق حتى تصبح كالغبار، ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفًا من انفزاره[٩]، ويصنع الخراط من أجل ذلك مدفعًا من خشب تناسب جسامته فوهته، وتدك الذخيرة فيه بشدة، ويضاف إليها إما بندق، وإما نبل، ثم تشعل، ويكون قياس المدفع مناسبًا لثقبه، فإذا كان عميقًا أكثر من اتساع الفوهة بدا ناقصًا»[١٠]، وفي نسخة أخرى مـن المخطوط[١١] للمؤلف نفسه ذكر المعنى نفسه، ولكن مع اختلاف بعض المفردات، فقال: «تأخذ عشرة دراهم من البارود، وفحم درهمان، ودرهم واحد من الكبريت، اطحنها جيدًا واملأ ثلث المدفع ليس أكثر. أغلق السطام[١٢] بأمان بعد حشو الشحنة. ضع في الكرة أو السهم وأشعل النار بواسطة الفتيل، واعمل قياسًا للمدفع تحت الحفرة، فإذا كان بعمق أكثر مـن الحفرة، فهذا يعني أنه غير فعّال، وبه خلل وسيضرب مستخدمه»[١٣].

واتفق بعض العلماء على أن تقنية البنادق عرفت من المدفع اليدوي المذكور بمخطوط المخزون في جامع الفنون أواخر (ق ٧ هـ/ ١٣ م) أوائل (ق ٨ هـ/ ١٤ م)[١٤]؛ حيث ظهر بالشكل المرفق لوصف المدفع رجل حامل لهذا المدفع، ويستخدم في إشعاله الفتيل المشتعل (شكل ٨).

أما إذا انتقلنا لكتاب الأسلحة للعالم المسلم أرنبغا الزردكاش نجد أنه يمثل نقلة نوعية أخرى كبيرة في مجال تقنيات الأسلحة النارية؛ إذ إنه عرض لنا أنواعًا من الأسلحة النارية المبتكرة التي لم تكن مستخدمة من قبل، وكان أهمها المدفع المتدرج، ومعه نماذج مختلفة الأنواع من القنداق الذي يحمل المدفع مع تحديد المدى المؤثر للقذيفة (شكل ١٠)، بالإضافة إلى مجموعة من المجانيق والآلات الحارقة المخصصة لحرق السفن الحربية

(شكل ١٠) المكحلة أو المدفع كما رسمها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة مع رسم لثلاثة نماذج من غناديق المدافع (حامل المدفع) من النوع المتدرج لمعرفة مدى القذيفة. ومن أعلى مجسم للمدفع معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

(أشكال ٦، ٧، ٩). حتى إن أرنبغا الزردكاش أعطى لنا وصفًا لكيفية استخدام المدافع والمنجنيقات أعلى الأبراج الحربية من خلال تصميمه لنماذج من هذه الأبراج لتتناسب مع تطور هذه الأسلحة (شكل ١١). كما صور لنا نموذجًا متطورًا من الزحافات

(شكل ١١) يوضح كيفية استخدام الأبراج الحربية مع الآلات الحربية المتطورة من منجنيقات ومدافع ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقات (٨٣ : ٨٨)، والشكل من أعلى اليسار نموذج مجسم برج حربي، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

المخصصة لهدم الحصون والأبراج الحربية (شكل ١٢). وهذه الآلات تمثل بلا شك نقلة نوعية في تقنيات أدوات القتال والآلات الحربية في العصر المملوكي، التي بلا شك أثرت بشكل ملحوظ على أنظمة الفروسية التقليدية كما سنوضح.

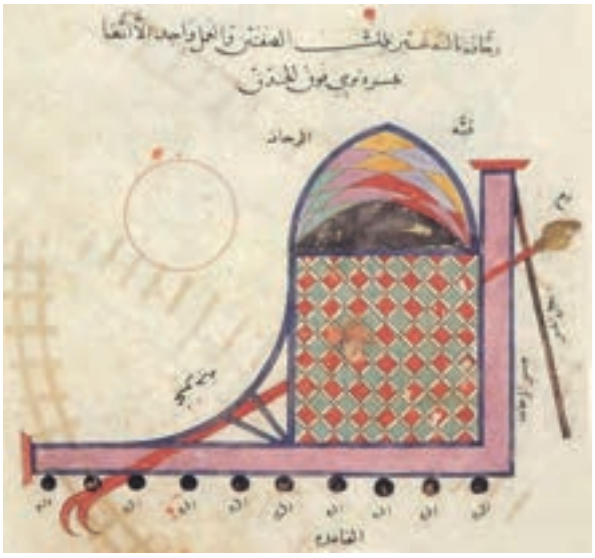

(شكل ١٢) نوع من أنواع الزحافات الحربية ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٦٩)، والشكل من أعلى نموذج مجسم للزحافة، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

أما مخطوط العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع لإبراهيم بن غانم الأندلسي؛ فيمكن لنا القول: إنه يمثل ذروة التقدم الحربي التقني الذي بلور لاستخدام المدفعية سلاحًا ناريًّا أساسيًّا لا يمكن بأي حال الاستغناء عنه لحسم المعركة، وعلى أية حال، فهو يمثل آخر مراحل التطور التقني الحربي خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، والنصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي[١٥].

أهمية دراسة التراث العلمي الحربي المملوكي

وعلى كلٍّ، فإن الآلات الحربية التي تزخر بها المتاحف المختلفة على مستوى العالم، في المتاحف المصرية وغيرها من المتاحف العالمية بالعديد من الأسلحة الحربية وأدوات القتال. ولولا الكشف عن التراث العلمي الحربي عند المسلمين مثل تراث أرنبغا الزردكاش في كتاب الأسلحة، وابن منكلي الناصري، ومن قبلهم مرضي الطرسوسي وكتابه الشهير التبصرة، لما تمكنا من معرفة هذه الآلات الحربية ولا وظيفتها وكيفية عملها. وتزخر المتاحف بالعديد من الآلات الحربية والأسلحة بمختلف أنواعها. وما كنا نعرف أنواع هذه الآلات ووظيفتها وكيفية عملها إلا بعد الرجوع إلى التراث العلمي الحربي عند المسلمين، فمثلاً ما كنا نعرف أنواع آلات الحصار، ولا أنواع المدافع التي طورها علماء المسلمين خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وخلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إلا بعد الكشف عن المخطوطات الحربية عند المسلمين؛ مثل: كتاب إبراهيم الأندلسي «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» الذي يحوي العديد من الآلات الحربية وأنواعها وكيفية صنعها والغرض الوظيفي لكلٍّ منها، وبالتالي استطعنا دراسة الآلات الحربية المحفوظة بالمتاحف المختلفة.

الإطار الثاني

مدى استيعاب الجيش المملوكي لهذه التقنيات

بعد هذا العرض الموجز لتطور تقنيات الآلات الحربية وأدوات القتال في العصر المملوكي استطعنا الوقوف على مدى التطور الذي لحق بهذا العصر، ولكن السؤال الآن هل استوعب الجيش المملوكي هذا التطور أو أن هذا التطور كان في إطار مؤلفات علمية لم ترقَ إلى مستوى التطبيق العملي!

للإجابة عن السؤال لا بد لنا أولًا تتبع مراحل استخدام هذه الأسلحة في الجيش المملوكي؛ لأن الإجابة عن هذا السؤال ستمهد لنا الطريق لنعرف هل الجيش المملوكي تطور، وهل هذا التطور كان له تأثير على أنظمة الفروسية في ذلك الوقت أو لا؟

من الثابت لنا تاريخيًّا، وحسب أقوال المؤرخين، ووفق ما توافر لنا من تراث علمي وأدبي يرجع للعصر المملوكي، فإن بداية تطور التقنيات الحربية وآلات الحرب وأدوات القتال كانت على أيام السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين بن السلطان محمد بن قلاوون (٧٦٤ – ٧٧٨ هـ/ ١٣٦٣ – ١٣٧٦ م)، وخاصة أننا إذا تتبعنا الحركة العلمية التي حدثت في ذلك الوقت

نجد أن العديد من مؤلفات التراث العلمي الحربي المملوكي كتبت على أيام السلطان الأشرف شعبان[١٦]، وخاصة ظهور العديد من العلماء في ذلك الوقت؛ أمثال العالم المسلم محمد بن منكلي الناصري (ت بعد ٧٧٨ هـ/ ١٨٧٦ م)، وكان نقيبًا للجيش المملوكي، وأرنبغا الزردكاش وغيرهم. وقد دلل القلقشندي على صحة ذلك؛ حيث أورد لنا تجارب استخدام المدفعية في الإسكندرية على أيام السلطان الأشرف شعبان، وحدثنا عن بعض أنواع الأسلحة التي ظهرت في هذا العصر، وخاصة المدافع التي ظهرت في عصر الأشرف شعبان، وكانت تتم تجربتها تحت إشرافه الشخصي، وهي أنواع مختلفة من المدافع، غير التي ذكرها أرنبغا الزردكاش في كتابه «الأسلحة» وجربت بالإسكندرية، ومنها مدفع صنع من النحاس والرصاص وله غنداق (قنداق) من الحديد للحفاظ على توازنه والتحكم في رد فعله وقت إطلاق قذيفته، وقذيفة هذا المدفع كرة من الحديد أطلقت من الميدان بالإسكندرية فوقعت في بحر السلسلة[١٧].

ومن وجهة نظر الباحث، إن هذا التقدم التقني الحربي في ذلك الوقت كانت له أسبابه، وكان السلطان الأشرف شعبان حريصًا على تسليح جيشه بآلات الحرب المختلفة وخاصة المدافع، ويُذكر أن زردخانة الإسكندرية كانت مليئة بآلات الحرب المختلفة وخاصة المدافع والمنجنيقات والقنابر أو القنابل وحوالي ستة آلاف سهم وآلاف السيوف والرماح وغيرها[١٨]. وذلك حرصًا منه أن تكون الإسكندرية على أهبة الاستعداد؛ خوفًا من غزو الفرنج لها مرة أخرى، فقد تعرضت الإسكندرية لغزو قبرصي عام (٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م) بقيادة بطرس فون لوزينان Peter von Lusignan (٧٦١ - ٧٧١ هـ/ ١٣٥٩ - ١٣٦٩ م) ملك قبرص. وحدثنا عن هذا الغزو النويري السكندري محمد بن قاسم بن محمد النويري المالكي السكندري في كتابه «الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية».وربما حرص السلطان الأشرف شعبان بعد تعرض الإسكندرية لهذا الغزو المدمر على تسليح جيشه بأسلحة متطورة؛ مثل المدافع وغيرها؛ خوفًا من تكرار الغزو من الإفرنج مرة أخرى، حتى إنه اتخذ قرارًا بتحويل الإسكندرية من الولاية إلى النيابة[١٩]؛ وذلك لينفرد نائبها بالاهتمام بها، وبتحصينها مثلها مثل نواب بلاد الشام[٢٠]. وقد حرص أيضًا على أن تكون تجارب المدافع بالإسكندرية – على الأخص – لقياس مدى فاعليتها عمليًّا، والوقوف على إمكاناتها وقدرتها على التصدي لأي هجوم بحري. كما حرص على حضور ومتابعة هذه التجارب بنفسه، فكان الدافع الأساسي للسلطان الأشرف شعبان بعد وقعة الإسكندرية هو تحديث جيشه بأحدث الأسلحة، وابتكار وتطوير أسلحة جديدة.

يزداد الأمر شيئًا فشيئًا على عهد السلطان ناصر الدين فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨١٥ هـ/ ١٣٩٩ - ١٤١٢ م) حتى إن ابن تغري بردي ذكر أن الناصر فرج أمر بسبك مدافع لتسليح الحصون بها، وسميت بـ «مكاحل النقط الكبار»[٢١]، ويذكر لنا المؤرخ أبو المحاسن ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) أنه كان شاهد عيان لهذه التجارب، وقام بنفسه بقياس مسافة الرمي، وأخبره للسلطان الظاهر خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ/ ١٤٦١ - ١٤٦٧ م) بنفسه، كما أبلغ السلطان عيار المدفع وزنته وجميع صفاته[٢٢]. وقد حرص السلطان خشقدم على حضور هذه التجارب بنفسه، كما حرص على تتبع تطورها بأسلوب علمي، فقد كلف ابن تغري بردي بتدوين وتسجيل بيانات ومسافات رمي تلك المدافع؛ للوقوف على إمكاناتها ومدى الرمي بها. وهذا يدل من غير شك على مدى حرص سلاطين المماليك على اتباع أحدث ما وصلت إليه النظم العسكرية في ذلك الوقت وبأسلوب علمي متطور. وفي ذلك يقول ابن تغري بردي: «في يوم الثلاثاء الرابع عشر من شوال سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م، رسم السلطان خشقدم المدفع السلطاني الذي سبكه للسلطان الأستاذ إبراهيم الحلبي بقلعة الجبل، وصرخ[٢٣] بين يدي السلطان في أواخر رمضان من تحت القلعة إلى جهة الجبل الأحمر غير مرة، ثم نقل إلى ذيل الجبل الأحمر بالقرب من قبة النصر خارج القاهرة، ووضع رجل المدفع نحو الجبل المذكور، وفمه إلى جهة خانقاه سرياقوس[٢٤].

وبطبيعة الحال انتقل هذا التطور إلى السلاطين المماليك فيما بعد، فقد استخدم السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢ - ٩٠١ هـ/ ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م)، والسلطان محمد بن قايتباي (٩٠١ - ٩٠٤ هـ/ ١٣٩٨ - ١٥٠٠ م) المدافع خلال حروبه الخارجية. اتفق العلماء على أن المماليك عرفوا الأرقبوصات في أواخر العصر المملوكي الجركسي على عهد السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢ - ٩٠١ هـ/ ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م)[٢٥]. وكان السلطان الأشرف قايتباي من السلاطين الذين اهتموا باستخدام تقنيات متطورة في جيشه، فعمد إلى تحديث جيشه بأحدث الأسلحة الحربية الموجودة في ذلك الوقت، وكانت الأرقبوصات[٢٦] من بين أنواع تلك الأسلحة، وقد حرص السلطان قايتباي على تزويد جيشه من حملة الأرقبوصات، كما اقتصر جنده من حملة هذه البنادق على فرقة «أولاد الناس»، وقد أمرهم بأن يتعلموا استخدام البندق الرصاص أو الأرقبوصات، وكان السلطان يحضر هذه التدريبات بنفسه. وفيها يقول ابن إياس في حوادث (٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م): «وفيه عرض السلطان[٢٧] أولاد الناس أصحاب الجوامك من ألف درهم إلى دونه، وكان

أمرهم أن يتعلموا رمي البندق الرصاص قبل ذلك، فلما عرضهم ورموا قدامه كتبهم إلى التجريدة، وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارًا، وكل اثنين أشركهم في جمل أعطاه لهم، وخرجوا صحبة التجريدة»[٢٨]، وقد أشرك السلطان قايتباي هذه الفرقة في حملته لرد العثمانيين على حدود السلطنة المملوكية من ناحية الشرق عام (٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م)، وانتهت هذه الحملة بانتصار السلطان قايتباي[٢٩].

وقد حرص ابنه السلطان ناصر الدين محمد بن قايتباي (٩٠١ - ٩٠٤ هـ/ ١٣٩٨ - ١٥٠٠ م) على تحديث جيشه بإنشاء وحدة من حملة الأرقبوصات جعل قوامها من العبيد غير النفطية[٣٠]. وقد ذكر ابن طولون أن العبيد السودان استخدموا البنادق في حوادث خامس عشر من رمضان سنة (٩٠٥ هـ/ ١٥٠٠ م) بقوله: «وفي يوم الخميس عاشر رمضان المذكور وفي أمسه أكثر العبيد السودان الذين وكلهم النائب بالقلعة من إطلاق البارود بالكفيات على جوانبها ليظهر لقاصد السلطان الذي أرسله إلى ملك الروم ابن عثمان بهدايا سنية أبهة أخذه لقلعة دمشق»[٣١].

ولكن لم يستطع هذا السلطان أن يواصل ما عزم عليه، فقد قاومه الأمراء المماليك أمام طموحه في تحديث جيشه، وأجبروه على حل هذه الفرقة تمامًا، بل طالبوه بألا يعود إلى مثل هذه الفكرة مرة أخرى[٣٢]، والأكثر من هذا أنه دفع حياته ثمنًا لذلك، وقاموا بقتله[٣٣].

وفي عهد السلطان الأشرف قانصوه الغوري كان الأمر ملحًّا لتحديث الجيش، وخاصة أن السلطان الغوري جرد حملات كبيرة لمحاربة البرتغاليين في البحر الأحمر، وكان اهتمام السلطان الغوري بصناعة وسبك المدافع اهتمامًا يسير وفق منهج علمي، ومن يخالف هذا المنهج تعرض إلى أشد العقاب. وقد وضعت أنظمة تعد مقياسًا للنجاح أو الفشل في هذا المجال. وكان هذا نابعًا من غير شك من حرص السلطان الغوري على اتباع أحدث النظم العلمية، وكان حريصًا على معرفة كل ما هو جديد عن طريق معرفة واستقدام الخبرات الأجنبية لتحديث الأسلحة عنده وتطورها[٣٤]، وهو ما جعل السلطان الغوري يوضع في مصاف السلاطين الذين أدوا عملهم بعناية وإتقان، وأدل على هذا أنواع المدافع التي ظهرت في عهده وتطورها على يديه. وكانت تجربة المدافع تتم بالريدانية، وأهم عامل من عوامل نجاح المدافع هي أن تصل إلى الهدف المحدد لها، وكان هذا الهدف هو أن تصل قذيفة المدفع إلى حدود مكان معلوم عندهم، وقد حدده لنا ابن إياس بالقرب من بركة الحاج. فقد أعطى لنا ابن إياس نصًّا فريدًا نستطيع من خلاله التعرف على بعض الأنظمة التي وضعها السلطان الغوري لضمان تشغيل واستخدام هذه

(شكل ١٣) الأقواس الميكانيكية ذكرها أرنبغا الزردكاش في مخطوط الأسلحة ورقة (٨٠)، والشكل من أعلى نموذج مجسم للقوس، معروض في متحف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.

المدافع بنجاح. وقد حدثنا بقوله: «الذي صح من المكاحل فيهم من عدى حجره إلى قريب بركة الحاج»[٣٥]. وإذا أمعنا النظر في هذا النص نستطيع معرفة مقدار تطور المدافع التي كانت على عصر السلطان الغوري، فتجربة المدافع تتم بالريدانية وصولاً إلى بركة الحاج، وهو المكان المعلوم لوصول قذائف أو كرات المدفع إليه، وبركة الحاج تقع على بعد ١١ كم من الريدانية[٣٦] موضع تجارب المدافع، أي عوامل نجاح هذه المدافع هي أن تصل كراتها إلى هذا المكان، وهنا إشارة واضحة إلى أن مدى قذائف المدافع في عصر السلطان الغوري كان يصل إلى أكثر من ١٠ كم تقريبًا، وهي مسافة كبيرة لا يُستهان بها، وهذا يدل على تطور المدافع في عصر الغوري، وكذلك تطور مداها، وخاصة أن مدى قذائف المدافع قبل عصر الغوري في عصر السلطان ناصر الدين شعبان، والسلطان خشقدم كانت حوالي ٣ كم تقريبًا، وهذا يدل بلا شك على أن المدافع في عصر السلطان الغوري كانت في تطور مستمر وفق منهج علمي وُضع لذلك.

وقد أعطى لنا ابن إياس بعض الإشارات والنصوص الهامة نستطيع من خلالها التعرف على أنواع المدافع التي ظهرت في عصر الغوري، فذكر لنا أن السلطان الغوري سبك مدافع من الحديد والنحاس على حجمين مختلفين منها مدافع كبيرة ومدافع صغيرة، والمدافع الكبيرة وزنها ٦٠٠ قنطار شامي، وطولها حوالي عشرة أذرع. وفيها يقول ابن إياس: «وقيل إن السلطان سبك نحوًا من سبعين مكحلة ما بين كبار وصغار من نحاس وحديد، فكان منها أربعة كبار، فقيل وزن كل واحدة منها ستمائة قنطار شامي، فكان طول كل واحدة نحوًا من عشرة أذرع»[٣٧]. وهنا يعطينا ابن إياس إشارة واضحة لطول مدافع السلطان الغوري عشرة أذرع (حوالي ٥ م)، وكانت هذه المدافع على الأرجح تستخدم في الحصون بمصر والشام[٣٨]، ولم يعطنا ابن إياس إشارات لطول ووزن المدافع الصغيرة غير أنها على الأرجح كان طولها ٢٥ شبرًا، وكانت أخف وزنًا من المدافع الكبيرة سابقة الذكر[٣٩]، وما زالت بعض المتاحف العالمية تحتفظ بنماذج نادرة لهذه المدافع[٤٠]، أما بنادق الأرقبوصات فانتشر استخدامها على عصر السلطان الغوري، بل إنه أنشأ وحدة مستقلة من الجيش أطلق عليها الطبقة الخامسة كانت مخصصة لحمل الأرقبوصات[٤١] (شكل ١٤).

أما الجنوح إلى القول بأن السلطان الغوري رفض تطوير جيشه بحجة تمسك أمراء مماليكه بأنظمة الفروسية التقليدية، وعدم الاعتراف باستخدام الأسلحة النارية المتطورة في ذلك الوقت، ما هو إلا جنوح لا يرقى إلى الواقعية ولا المنطق في شيء، بل إنه يتنافى تمامًا مع الأحداث التي مرت بالسلطنة المملوكية في ذلك الوقت أو الأحداث التي ذكرتها المصادر التاريخية.

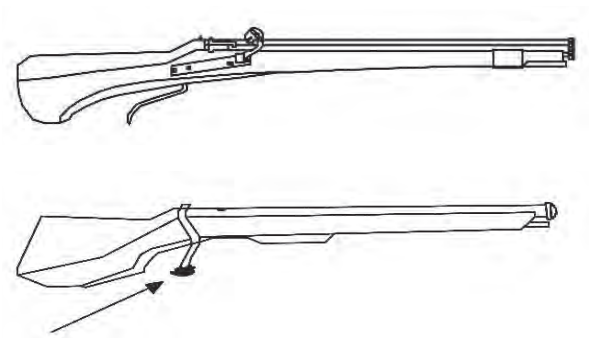

(شكل ١٤) نموذجان من أرقبوص الفتيل المشتعل كبديل للأسلحة التقليدية في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.
انظر: المصطفى محمد الخراط، معد، **المدفعية المصرية: الابتكار والتطور.. من العصر المملوكي إلى عصر محمد علي**، سلسلة ذاكرة مصر المعاصرة ١٧ (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٦): شكل ٢٣.

فقد كان للسلطان الغوري حكم مصر والشام وبلاد العرب، وبعض الجزيرة الفراتية وبلاد العواصم وهي القسم الجنوبي من آسيا الصغرى، كل ذلك في سلطان ملوك مصر وكانت كذلك أيام السلطان الغوري، حتى إن بني رمضان الذين تسلطوا في أذنه وطرسوس وما يليها يولون من قبل سلاطين مصر، بل وبلغت الأساطيل المصرية سواحل الهند وبنت عليها قلاعًا لحماية التجارة. وقد اجتهد الغوري زمنًا في الاحتفاظ بسلطان المصريين في تلك الأرجاء على الرغم من محاربته البرتغاليين، وكان بعض أمراء الهند يستنجد به على الفرنج فيرسل الأساطيل والجند، وكان للسلطان الغوري ومن قبله باقي السلاطين الزعامة بين ملوك المسلمين؛ لتوليهم خدمة الحرمين الشريفين[٤٢]. وإذا ما تطرقنا لقراءة الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك وسلاطين العثمانيين وغيرهم – التي جمعها فريدون بك[٤٣] ونشرت مؤخرًا – نستطيع أن نعرف مكانة السلطان الغوري، ومن قبله سلاطين المماليك عند غيرهم من سلاطين آل عثمان وغيرهم من الأقطار الأخرى من أمراء آسيا الصغرى، ومن بلاد السودان والحبس وبلاد الكرج وأوروبا وجزر بحر الروم. وكل ذلك كان يحتمي أو يلجأ للسلطان الغوري كمقصد آمن أو كمساعدة لبلاده، حتى إن ابن إياس ذكر ذلك في حوادث ربيع الآخر ٩١٨ هـ بقوله: «ومن العجائب أن في هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدًا».

والمقصد من التطرق في الحديث عن كيف كان وضع السلطنة المملوكية في ذلك الوقت يعطينا بلا شك انطباعًا هامًّا عن قدرات الجيش المملوكي في ذلك الوقت، فمن غير المعقول أن يهزم السلطان قايتباي العثمانيين ٨٩٥ هـ من دون استخدام أسلحة متطورة، وخاصة أن الجيش العثماني في ذلك الوقت كان يمتلك أحدث التقنيات الحربية في أدوات القتال أو آلات الحرب، ومن غير المقبول أن يجرد السلطان الغوري حملات بحرية لمحاربة البرتغاليين – التي كانت تمثل أكبر قوة مسيحية في ذلك الوقت – من دون أن يسلح جيشه بأسلحة وتقنيات حربية متطورة.

فمن المعروف أن خطر البرتغاليين استفحل زمن السلطان الغوري، وقاموا بتجهيز حملة على الهند بقيادة الملك فرانسيسكو دي الميادا Francisco De Almeda، الذي سيكون قائدًا للحملة ونائبًا للملك البرتغالي في الهند، واستنجد ملوك الهند بالسلطان الغوري، فجهز السلطان الغوري حملة بقيادة الأمير حسين الكردي (٩١٢ هـ/ ١٥٠٥ م). وقد ساعده فيها السلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦ – ٩١٨ هـ/ ١٤٨١ – ١٥١٢ م)؛ حيث أهداه حوالي ٣٠٠ مدفع و٤٠ قنطارًا من البارود (٤,١٨١٤ كجم) وكميات كبيرة من النحاس والحديد. ووصلت تلك الحملة سواحل الهند (٩١٤ هـ/ ١٥٠٩ م) ونجح الأمير حسين الكردي في هزيمة البرتغاليين وقتل القائد البرتغالي لورنزو؛ ابن الملك فرانسيسكو، غير أن البرتغاليين بقيادة «دي كونها» ويعاونه القائد الشهير «الفونسو دي البوكيرك» استطاعوا دحر الجيش المملوكي بقيادة الأمير حسين الكردي، فجهز السلطان الغوري حملته الثانية (٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م) بقيادة الحملة الأولى ذاتها، ولكن شاءت الأقدار أن تحدث اضطرابات بمصر ويدخل العثمانيون مصر وتتحول مصر إلى ولاية عثمانية، وانتهى الأمر بإعدام الأمير حسين الكري في جدة[٤٤].

وفي نهاية هذا العرض تبين لنا أن سلاطين المماليك كانوا على دراية كاملة بكل ما هو جديد لتحديث الجيش، ومن غير المقبول التشكيك في استخدام الجيش المملوكي في عصره الجركسي بأحدث الآلات الحربية وأدوات القتال أو تبني رأي لا يتناسب مع ما وصل إلينا من تراث علمي متطور أو تراث أدبي يدل على ذلك، بل كانت الضرورة تحتم وتقضي على سلاطين المماليك الاهتمام بتطوير الجيش، بل ومن غير المقبول منطقيًّا أن يدخل سلاطين المماليك حروبًا خارجية مع جيوش متسلحة بأحدث النظم الحربية وأحدث الأسلحة في ذلك الوقت، والجيش المملوكي الجركسي متمسك بأنظمة حربية تقليدية وأسلحة غير متطورة، كما أثبتت لنا مخطوطات التراث العلمي والمصادر التاريخية مدى حرص الجيش المملوكي في تتبع كل ما هو جديد، والاهتمام البالغ بما ينتجه علماء عصره ليتم استخدامه عمليًّا والتدرب عليه.

الإطار الثالث

تأثير تطور هذه التقنيات على تشكيلات الجيش المملوكي الجركسي

لا شك أن هذا التطور التقني لم يأت مرة واحدة في الجيش المملوكي الجركسي، بل إنه كان يأتي تدريجيًّا، فكان السلطان المملوكي ينجح تارة، ويخفق تارة، ولكن في النهاية أدرك الجميع أنه لا مناص من إحداث هذا التطور.

لم يكن الأمر سهلًا أو هينًا على متخذي قرار التطوير؛ إذ تطلب الأمر استحداث تشكيلات على الجيش المملوكي لم تكن موجودة من قبل، أو زيادة عدد تشكيلات بعينها خدمة لهذا التطور، ومن أمثلة ذلك: فرقة العبيد النفطية أو النّفاطون أو النّفاطة أو أولاد الناس النفطية أو العبيد النفطية، كلها مصطلحات تدل على وظيفة واحدة، فهم المسئولون عن إعداد وتحضير مكونات مسحوق البارود اللازم للمدافع بالإضافة إلى تشغيلها وتجربتها مع سباكي المدافع، وإعداد كل ما يلزم من المواد المشتعلة والحارقة المستخدمة في العمليات الحربية، ومن وظائفهم أيضًا إطلاق المدافع وقذف المواد الحارقة على الأعداء في المعارك[٤٥]، وهم الطبجية في العصر العثماني. وهذه الوظيفة منذ العصر العباسي، ولكن تطورت خلال العصر المملوكي[٤٦]، وإن استُحدثت عليها المهام المتعلقة بالمدافع وبارود المدافع والمواد المشتعلة المستخدمة في بعض أنواع من كرات المدفع؛ مثل الكرات الحارقة، وكانوا في بعض الأحيان من غير المصريين، فكانوا على أيام السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨ هـ/ ١٣٦٣ – ١٣٧٦ م) من المغاربة، وأُطلق عليهم في عصر السلطان ناصر الدين محمد بن قايتباي (٩٠١ – ٩٠٤ هـ/ ١٣٩٨ – ١٥٠٠ م) العبيد النفطية[٤٧]، وعمل في هذه الوظيفة في بعض الأحيان فرقة أولاد الناس[٤٨]، وكانوا يلقبون بـ «أولاد الناس النفطية» في عصر السلطان نفسه، وأطلق عليهم في عصر السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ/ ١٥٠١ – ١٥١٦ م) نفطية أو عبيد نفطية، وطائفة النفطية تتبع طائفة الزردكاشية وناظر الزردخانة[٤٩].

كما تطلب الأمر استحداث فرقة جديدة لحملة الأرقبوصات أطلق عليها فرقة الطبقة الخامسة؛ حيث باتت الحاجة ملحة إلى تشكيل وحدة قوية من حملة الأرقبوصات، واضطر السلطان المملوكي إلى تشكيلها من غير العناصر المملوكية؛ نتيجة رفضهم

الدائم والمتكرر لاستخدام مثل هذه الأسلحة، ولرفضهم القاطع التخلي عن أصول الفروسية المملوكية التقليدية وعدم التحرر منها، وكانت عناصر هذه الطبقة من تراكمة وأعجام ومغاربة وأولاد ناس، وغير ذلك من الطوائف المختلفة، ولذلك أُطلق عليهم في بعض الأحيان «العسكر الملفق»[٥٠]. ويتبين من خلال ما سبق لجوء سلاطين المماليك إلى استحداث تشكيلات جديدة على الجيش أو زيادة وتطور تشكيلات أخرى سابقة؛ وذلك لتستوعب هذا التطور التقني الحربي من الآلات الحربية، وأدوات القتال (شكلا ١٥، ١٦).

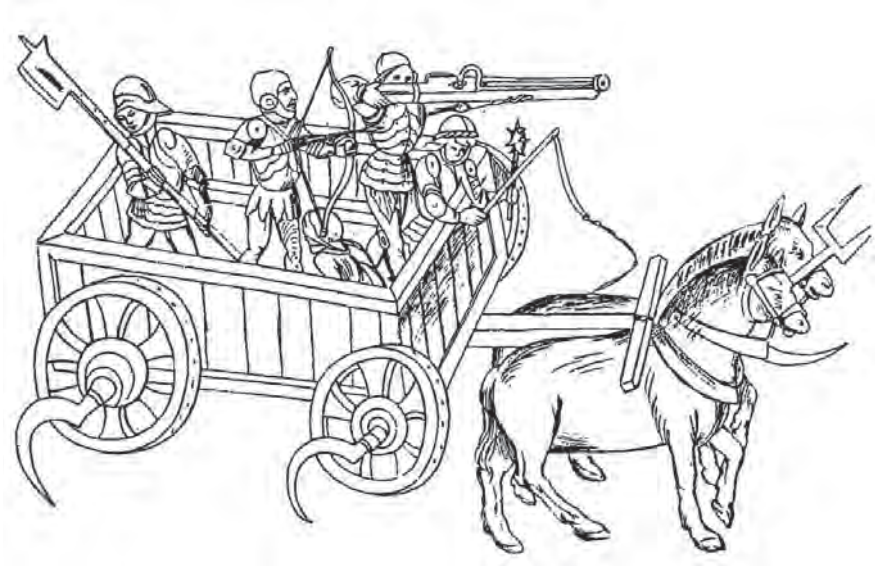

(شكل ١٥) عربة فرسان تمثل الفروسية بنوعيها؛ فروسية بأسلحة تقليدية؛ حيث يظهر استخدام القوس والسهم، وفروسية بأسلحة متطورة؛ حيث يظهر استخدام الأرقبوص، انظر: المصطفى محمد الخراط، معد، **المدفعية المصرية: الابتكار والتطور.. من العصر المملوكي إلى عصر محمد علي**، سلسلة ذاكرة مصر المعاصرة ١٧ (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٦): شكل ١٥.

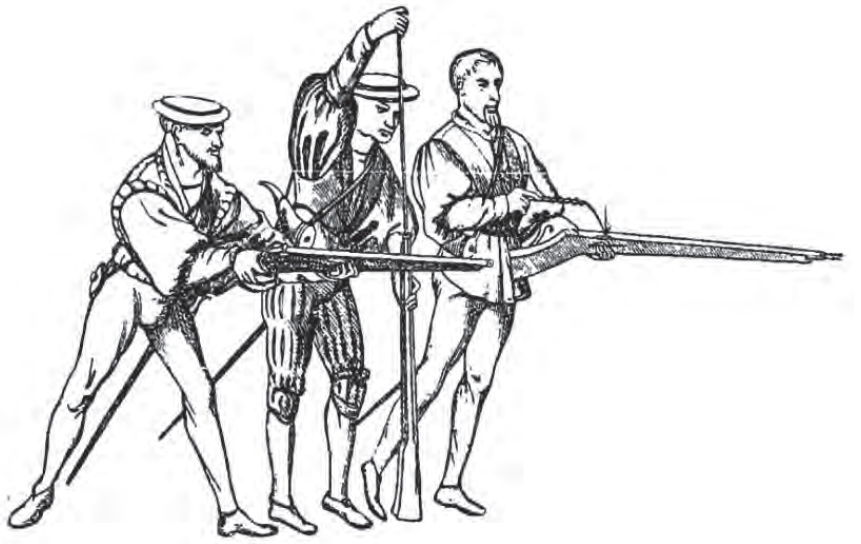

(شكل ١٦) طرق استخدام الأرقبوص كبديل للأسلحة التقليدية في المعارك

انظر: المصطفى محمد الخراط، معد، **المدفعية المصرية: الابتكار والتطور.. من العصر المملوكي إلى عصر محمد علي**، سلسلة ذاكرة مصر المعاصرة ١٧ (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٦): شكل ١٦.

الإطار الرابع

مدى تأثير هذه التقنيات على نظام الفروسية خلال العصر المملوكي الجركسي

تميز الجيش في العصر المملوكي الجركسي (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ/ ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) بأنه من أمهر الجيوش في مجال الفروسية، ولقد حد تطور التقنيات الحربية وأدوات القتال من استخدام الفروسية شيئًا فشيئًا، ولكن على النقيض مما ذكره البعض من أن المماليك رفضوا هذا التطور التقني بحجة الاحتفاظ بفروسيتهم التي انفردوا بها قرونًا عدة، وهو أمر يحتاج منا الاستيضاح لإزالة الخلط فيه والتشويش.

لا ننكر أبدًا أن الجيش المملوكي تفرد في مجال الفروسية وهو أمر لا يقبل التشكيك، ولكن مع ظهور تقنيات حربية متطورة - كما وضحنا - أصبحت الفروسية ليس لها موضع في ساحات القتال، ولكن السؤال الآن: هل تقبَّل الفارس المملوكي فكرة التخلي عن فروسيته والتسلح بما هو أحدث من السيف والرمح؟ حدث خلط كبير بين الباحثين في هذا الأمر مستندين إلى أقوال بعض المؤرخين التي تذكر أن الجيش المملوكي رفض التطور في مجال التقنيات الحربية وفضل التمسك بالفروسية ذات الأسلحة التقليدية، وخاصة في عصر السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦ م). وهو أمر لا يتناسب مع دولة تميزت بالعراقة في كل المجالات الحضارية، ولا يتناسب مع ما وصل إلينا من أدلة علمية وتاريخية تنفي هذه الآراء وفقًا لما تم عرضه، حتى إن بعض الباحثين أرجع هزيمة السلطان الغوري في موقعة مرج دابق (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م) إلى عدم تطور الأسلحة في الجيش المملوكي وتمسكه بالأسلحة التقليدية التي حارب بها، وهو أمر غير صحيح تمامًا، وهو ما جعلني أدقق النظر في أقوال المؤرخين للوقوف على مدى ما وصل إليه الجيش المملوكي من تقدم تقني في هذا المجال لإثبات عكس هذه الآراء في إطار ما توافر لنا من مصادر وأدلة آثارية تم الحديث عنها في محاور البحث السابقة (شكل ١٥).

ومن خلال العرض السابق يمكن لنا أن نقسم أنظمة الفروسية التي ظهرت خلال العصر المملوكي إلى نوعين؛ فروسية الأسلحة التقليدية، وفروسية الأسلحة المتطورة، وذلك لاختلاف أنظمتها عن الفروسية التقليدية التي كانت معروفة من قبل، والفروسية المتطورة هي التي بدأت تظهر خلال العصر المملوكي الجركسي، فالجيش المملوكي لم يتخلَّ عن أنظمة الفروسية بالكلية، ولكن أدخل عليها نوعًا من التطور جعلها تختلف عن أنظمة الفروسية التقليدية، فقد بات الجندي يحمل آلات للقتال وأسلحة لم يكن يحملها من قبل؛ مثل الأرقبوص، وما يتعلق به من آلات أخرى مساعدة في استخدامه، ولكن في الوقت نفسه لم يتخلَّ عن السيف والرمح والخنجر وما شابه من الأسلحة التقليدية.

ومن خلال هذا العرض السابق نستطيع أن نتوصل إلى عدة نتائج؛ أهمها كان الحرص أشد الحرص على تطوير التقنيات الحربية، وذلك كان واضحًا من خلال ما وصل إلينا من تراث علمي وأدبي في ذلك الوقت، كما أثبتت الدراسة أن الجيش المملوكي استوعب تدريجيًّا تطور التقنيات الحربية وأدوات القتال التي أدخلت عليه. من خلال ما وصل إلينا من تراث علمي يمكن القول إن عصر السلطان الأشرف شعبان كان عصرًا مزدهرًا بتطور العلوم بصفة عامة، والعلوم الحربية بصفة خاصة، ولا شك أن تطور تقنيات الأسلحة التي ظهرت خلال تلك الفترة عملت على استحداث تشكيلات جديدة على فرق الجيش المملوكي. ويمكن القول إن تطور تقنيات الآلات الحربية، وأدوات القتال خلال العصر المملوكي الجركسي قد أثر على أنظمة الفروسية التقليدية التي باتت لا تتناسب مع تطور الأسلحة وأدوات القتال في ذلك الوقت وجعلها تتحول شيئًا فشيئًا إلى أنظمة حربية جديدة يمكن أن نطلق عليها أنظمة الفروسية المتطورة. وهذا التحول كان نتاج التطور التقني الحربي وآلات القتال المتطورة خلال العصر المملوكي، التي باتت من الأهمية بمكان ولا يمكن الاستغناء عنها، وخاصة أنها أصبحت شيئًا فشيئًا من أهم مقومات الجيوش في ذلك الوقت، فأصبح لا مناص من استخدامها شاء مَن شاء وأبى مَن أبى، وأصبح لزامًا على السلاطين وكبار الأمراء تنفيذ هذا التطور. وبات لزامًا بطبيعة الحال ظهور تشكيلات وعناصر جديدة في الجيش المملوكي، مع الاختفاء التدريجي لتشكيلات وعناصر أخرى ليس لها مهام قتالية مع ظهور الأنظمة الحربية المتطورة، وكان للفروسية المملوكية التقليدية النصيب الأكبر من هذا التحول التدريجي من منطلق أن الفروسية التقليدية بأسلحتها التقليدية باتت غير ذات جدوى مع التطور الكبير الذي حدث لأدوات القتال والآلات الحربية في ذلك الوقت.

الهوامش

* باحث في الآثار والحضارة الإسلامية.

(١) ابن أرنبغا الزردكاش (ت ٨٦٧ هـ)، **كتاب الأسلحة**، تحقيق فؤاد سيزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. سلسلة عيون التراث ٧٠ (فرانكفورت: جامعة فرانكفورت. معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ٢٠٠٤): ٦.

(٢) المرجع السابق: ٧.

(٣) Fuat Sezgin, *Wissenschaft und technik im Islam*, Vol. 1, *Einführung ind die geschichte der arabisch islamischen wissenschaften* (Frankfurt: Johann Wolfgang Goethe; Universität. Institut fur Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften, 2003): 95.

(٤) فيكونت مونتجمري، **الحرب عبر التاريخ**، ترجمة فتحي عبد الله النمر، مج. ٢ (القاهرة: دار الكتب، ١٩٧٢): ٢٧٨؛ جورج كاستلان، **تاريخ الجيوش**، ترجمة كمال دسوقي، الألف كتاب ٧٤ (القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٥٦): ٨٧.

(٥) ابن أرنبغا الزردكاش، **كتاب الأسلحة**: ٧.

(٦) دونالد ر. هيل، **العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية**: لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية، ترجمة أحمد فؤاد، سلسلة عالم المعرفة ٣٠٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٤): ١٥٥–١٦١.

(٧) للاستزادة يمكن الرجوع إلى: المصطفى محمد الخراط، معد، **المدفعية المصرية: الابتكار والتطور... من العصر المملوكي إلى عصر محمد علي**، سلسلة ذاكرة مصر المعاصرة ١٧ (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٦).

(٨) المخطوط محفوظ في معهد الشرقيات بسان بطرسبورج، برقم C686، وقد اختلف العلماء حول تأريخ هذا المخطوط فيرى غوستاف لوبون أنه يرجع للقرن (٧ هـ / ١٣ م)، ومنهم من يرى إرجاعه إلى القرن (٨ هـ / ١٤ م)، ومنهم الدكتور فؤاد سزكين، ومنهم من يرى أنه يرجع لأواخر القرن (٧ هـ / ١٣ م) أوائل القرن (٨ هـ /١٤ م)، ومنهم الدكتور أحمد يوسف الحسن والدكتور دونالد هيل، والرأي الأخير هو الأرجح على أقل تقدير، انظر: غوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، الأعمال الفكرية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠): ٤٧٨، ٤٩٠؛

Sezgin, *Wissenschaft und technik im Islam*, Vol. 1: 133.

(٩) انفزاره بمعنى ثقبه أو انفجاره.

(١٠) لوبون، **حضارة العرب**: ٤٨١.

(١١) نسخة محفوظة بمتحف طوبقابوسراي بإسطنبول، انظر: أحمد يوسف الحسن، ودونالد هيل، **التقنية في الحضارة الإسلامية**، ترجمة صالح خالد ساري (الكويت: مكتبة الفلاح، ٢٠٠١): ١٩٤.

(١٢) السطام: هي خرقة من الكتان يحكم بها البارود لضمان تماسكه خوفًا من تناثره؛ لأن تناثر كميات من مسحوق البارود يضر بالمدفع.

(١٣) الحسن، وهيل، **التقنية في الحضارة الإسلامية**: ١٩٤.

(١٤) Sezgin, *Wissenschaft und technik im Islam*, Vol. 1: 100.

(١٥) المخطوط نُشِر ضمن رسالة دكتوراه بجامعة سوهاج ٢٠١١، انظر: المصطفى محمد الخراط، **تطور الأسلحة النارية «المدافع والبنادق» وأثرها على العمائر الحربية من العصر العثماني حتى نهاية حكم محمد علي (٩٢٣ – ١٢٦٥ هـ/ ١٥١٧ – ١٨٤٨ م): دراسة آثاريه فنية معمارية** (رسالة دكتوراه، جامعة سوهاج. كلية الآداب. قسم الآثار الإسلامية، ٢٠١١). والمخطوط قيد النشر.

(١٦) الخراط، معد، **المدفعية المصرية**: ٤٩–٥٠.

(١٧) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مج. ٣، سلسلة الذخائر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤): ١٣٧.

(١٨) بول كاله، «صورة عن وقعة الإسكندرية: ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م من مخطوطة الإلمام للنويري السكندري»، ترجمة درويش النخيلي، وأحمد قدري، **دراسات أثرية وتاريخية ٣** (١٩٦٩): ٥٠؛ عبد الرحمن زكي، «غزو الإفرنج للإسكندرية: ٧٦٧ هـ ١٣٦٦ م»، **مجلة الجيش ١٤**، العدد ٥٦ (١٩٥٢): ١–٢٤.

(١٩) أيضًا من القرارات التي اتخذها السلطان الأشرف شعبان في محاولة منه استعادة ما خربه الفرنج هو إرغام التجار النصارى المقيمين بالإسكندرية على دفع مبالغ كبيرة لافتداء الأسرى من القبارصة، وكذلك مساهمة منهم رغمًا عنهم في إعمار المدينة، انظر: كاله، «صورة عن وقعة الإسكندرية»: ٥١. وقد انتهج النهج نفسه سلاطين المماليك من بعده وخاصة السلطان الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ هـ/ ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م) حينما أصدر مرسومًا سلطانيًّا بمصادرة أموال وممتلكات الفرنج والمسيحيين في مصر والشام؛ لإصلاح ما تخرب بالإسكندرية، فقد نهبها وخربها الفرنج الذين وفدوا عليها من الغرب، فلماذا لا يكون إصلاحها على يد الفرنج القانطين في الشرق، على حد قول الدكتور عبد الرحمن زكي، انظر: المرجع السابق: ٢٤.

(٢٠) محمد عبد الغني الأشقر، **نائب السلطنة المملوكية في مصر: من (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م)**، سلسلة تاريخ المصريين ١٥٨ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩): ٧٣.

(٢١) الخراط، معد، **المدفعية المصرية**: ٥٢.

(٢٢) عبد الرحمن زكي، «ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية في ضوء ما كتبه في كتاب بدائع الزهور»، ورقة بحثية. **الندوة التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية**، ١٦ – ٢١ ديسمبر ١٩٧٣: ١٣٦.

(٢٣) صرخ: انطلق وأحدث دويًّا هائلًا قبل انفجاره، وهذا اللفظ مستخدم لدى علماء العصر المملوكي للتعبير عن شدة انفجار قذائف المدافع وقت انطلاقها، وما يتبع ذلك من إحداث صوت هائل يصيب مَن يسمعه بالذعر. وقد ورد هذا اللفظ عند أرنبغا الزردكاش عند وصفه لنوع من الكرات النارية أطلق عليها: «حجر منجنيق مخرّم»، انظر: ابن أرنبغا الزردكاش، **كتاب الأسلحة**: ٩٧.

(٢٤) زكي، «ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية»: ١٣٦.

(٢٥) المرجع السابق: ١١٢؛ ج. س. كولان وآخرون، **البارود عند المسلمين**، ترجمة إبراهيم خورشيد، وعبد الحميد يونس، وحسن عثمان، كتب **دائرة المعارف الإسلامية ١٤** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٤).

(٢٦) الأرقبوصات: النوع البدائي من البنادق، وهي كبيرة الحجم انتشر استخدامها في ذلك الوقت، انظر: الخراط، معد، **المدفعية المصرية**: ٣٢.

(٢٧) يقصد السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢ – ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م).

(٢٨) زين العابدين أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الناصري القاهري (ت ٩٣٠ هـ)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مج. ٣، سلسلة الذخائر ٣٦ – ٤٨ (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨): ٢٦٩.

(٢٩) مصطفى نجيب، «الاستعدادات العسكرية للسلطنة المملوكية في عهد السلطان الغوري ٩٠٦ – ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ – ١٥١٦ م»، **مجلة كلية الآثار: جامعة القاهرة** (١٩٩٠): ٣١٧، هامش ٥.

(٣٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، مج. ٣: ٣٤٣.

(٣١) شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي (ابن طولون، ت ٩٥٣ هـ)، **أعلام الورى بمن وُلِّيَ نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط. ٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٩): ١٢٥.

(٣٢) زكي، «ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية»: ١١٤.

(٣٣) نجيب، «الاستعدادات العسكرية للسلطنة المملوكية»: ٣٢٠، هامش ٢٣.

(٣٤) حسن الباشا، «قانصوه الغوري»، تحت «شخصيات بارزة من القاهرة»، في **القاهرة تاريخها فنونها آثارها** (القاهرة: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠): ١٤٤.

(٣٥) المرجع السابق: ٢٦٥.

(٣٦) نجيب، «الاستعدادات العسكرية للسلطنة المملوكية»: ٣٢١.

(٣٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، مج. ٣: ٢٦١.

(٣٨) نجيب، «الاستعدادات العسكرية للسلطنة المملوكية»: ٣١٨.

(٣٩) المرجع السابق.

(٤٠) زكي، «ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية»: ١١٢.

(٤١) ابن إياس **بدائع الزهور**، مج. ٤: ٢٠٦.

(٤٢) عبد الوهاب عزام، **مجالس السلطان الغوري: صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري** (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠١٠): ١٣–١٤.

(٤٣) تدل هذه المراسلات المتبادلة على مكانة السلاطين المماليك عند نظرائهم العثمانيين، واستمرت هذه المكانة إلى نهاية عصر السلطان الغوري، حتى إن السلطان سليم الأول كان يبالغ في إبداء الاحترام والتبجيل للسلطان الغوري حتى وصفه فيه بـ«حامي الحرمين المكرمين» و«ناصر الإسلام والمسلمين» و«ظهير أمير المؤمنين». كانت الرسائل تدل على مدى الاحترام المتبادل بين الطرفين، واستمر هذا الود المتبادل إلى أوائل محرم ٩٢٢ هـ / فبراير ١٥١٦ م؛ حيث كانت آخر رسالة ودية بين الطرفين، ثم توترت العلاقة بينهما، انظر: فاضل بيات، معد، ومترجم، **البلاد العربية في الوثائق العثمانية، ط. ٢، مج. ١، النصف الأول من القرن (١٠ هـ/ ١٦ م)** (إسطنبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (IRCICA)، ٢٠١٥): ٢٩ – ٣٣. أما عن أسباب التوتر في هذه العلاقة ليس موضوعًا للنقاش الآن لأن الأمر يحتاج إلى بحث ودراسة للحكم على أسباب توجه السلطان سليم إلى فتح الشام ومصر ومحاربة المماليك. ولكن في النهاية الغرض من هذا العرض هو إعطاء صورة واقعية عن مكانة سلاطين المماليك عند السلاطين العثمانيين وغيرهم، وكيف ينظر السلاطين العثمانيين وغيرهم إلى السلاطين المماليك وخاصة أن سلاطين المماليك في ذلك الوقت كانوا حماة الإسلام والمسلمين وحماة الحرمين الشريفين. أما عن أسباب تحول مصر من سلطنة مملوكية إلى ولاية عثمانية، فهو أمر يحتاج منا إلى التدقيق والبحث بتجرد ودون التحيز لطرف دون آخر، فقد تستدعي الضرورة في ذلك الوقت لحماية الإسلام أن تكون مصر والشام تحت مظلة السلطنة العثمانية، إذا أخذنا في الاعتبار أحوال مصر السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت، ولا يمكن التطرق عند الحديث عن أسباب هزيمة المماليك ضد العثمانيين في مرج دابق والريدانية إلى أسباب منها ضعف الجيش المملوكي أو عدم تفوقه في السلاح بالمقارنة بالعثمانيين، وجهة نظر الباحث أن هذا الأمر فيه تحامل على الجيش المملوكي؛ لأن الجيش المملوكي كان جيشًا متطورًا من ناحية التسليح، ومن ناحية التشكيلات الحربية والنظامية، أما عن أسباب الهزيمة فهي تشابك عدة أمور ليس موضوعنا الحديث عنها الآن، وإنما لصق أمر الهزيمة بسبب عدم تفوق الجيش المملوكي في السلاح بالمقارنة بالعثمانيين فهو أمر خاطئ جملة وتفصيلًا؛ لأن التقنيات الحربية وأدوات القتال التي كان يستخدمها الجيش المملوكي تدل عكس ذلك. وفي النهاية كما ذكرنا أن الأمر يحتاج إلى إعادة مراجعة ودراسة قبل إبداء الرأي في أسباب تحول مصر من سلطنة مملوكية إلى ولاية عثمانية، وخاصة أنه ربما تطلب الأمر لإنقاذ الإسلام ومصر وبلاد الشام مما لحق بهما من تردي للأوضاع إلى إنفاذ هذا التغيير.

(٤٤) فالح حنظل، **العرب والبرتغال في التاريخ: ٩٣ – ١١٣٤ هـ/ ٧١١ – ١٧٢٠ م: أكثر من ألف سنة من الأحداث بين الأمتين لم تأت في كتاب واحد قبل هذا** (أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٧): ١٤٧–١٥٥، ٢٤٥–٢٧٠.

(٤٥) الحسن، وهيل، **التقنية في الحضارة الإسلامية**: ١٧٤.

(٤٦) الخراط، معد، **المدفعية المصرية**: ٤٦–٤٧.

(٤٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، مج. ٣: ٣٤٣.

(٤٨) المرجع السابق: ٢٦٩، ٣٤٣.

(٤٩) المرجع السابق، مج. ٥: ٣١٠–٣١١.

(٥٠) الخراط، معد، **المدفعية المصرية**: ٤٥.

التدريب على الطعن بالرمح من مخطوط «المخزون جامع الفنون».

التدريب على كيفية لعب الدبوس من مخطوط «المخزون جامع الفنون».

The Memory of Arabs

Peer-reviewed Journal – Fourth Edition – 2020

ISSN 2735-4210

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية